تعظيم الشرف

يبدو أن الطبيعة ، كما لذ لها أن تتوج الذُّرَى الثلجية بأزهار نادرة رقيقة بديعة ، قد حرصت كذلك على إظهار لون من التأنق فى أن تخرج من رمال صحراء العرب القاحلة نبتة فواحة ، تتفتح عن أعذب أزهار الدنيا عطراً وأرقها فتنة وسحراً . أما هذه النبتة فهى « الشرف » وأما أزهارها فهى : الوفاء ، والولاء ، والإقدام ، والجود ، والمروءة .

ويعرف « شاتوبريان » الشرف فى العصر الحديث ، بأنه « فضيلة تعتمد فى أغلب الأحيان على تضحية ما عداها من الفضائل ، فضيلة قد تتنكر للسعادة ، ولكنها لا تتنكر للشقاء أبداً ، فضيلة لا تهدأ لها ثائرة إذا اشتمت إهانة ، أثرة وإن كانت أنبل شخصية ، تقسم اليمين لنفسها ، وهى لنفسها القضاء والقدر » . ولقد ولد الشرف — بمعناه هذا — من ولاء الهيئة الأرستقراطية لشخص الملك ، على حين كان هذا الملك مجرماً[1]. ويشرح « هردر » ذلك بقوله : « من الواضح أن مهنة حمل السلاح كان مقضياً عليها بأن تنحل وأن تصبح همجية صريحة ، منذ أن باتت حقاً

---

(١) شاتوبريان : تحليل مشروح لتاريخ فرنسا — الإقطاع ، الفروسية ، الخ . . ، ص ٨٢ وما يليها . انظر كذلك الصفحات الرائعة التى وصف فيها الشرف الفريد دى فينى (A. de Vigny) فى كتابه : عبودية العسكرى وعظمته .

وراثيًا ، ومنذ أن صار الفارس الشهم الولى – فى مهده – شريفاً من أرباب القصور . ولقد عمد أمراء بعيدو النظر ، ممن ربوا لديهم حراساً متعطلين ، إلى تحسين المنظمة ، كما سعوا – حرصاً على أمن بلاطهم وأسراتهم وأملاكهم – إلى صقل أخلاق هؤلاء الغلمان البواسل وتهذيب أرواحهم . ومن هنا نشأت تلك القوانين الصارمة ضد كل خيانة أو خسة ، ونشأت هذه الواجبات النبيلة : نصرة المظلوم ، والدفاع عن العرض ، والكرم إزاء العدو – وكلها أوامر ونواه تهدف إلى درء عنف أولئك الذين يحملون السلاح ، وترقيق شدة نزعاتهم» (١).

ومما سبق ، ينبغى أن نستخلص أولا : أن تعظيم الشرف لم يظهر فى أوربا إلا إبان القرون الوسطى ، وثانياً : أن تعظيم الشرف كان فى ذلك العصر صفة اختصت بها طبقة معينة هى الهيئة الارستقراطية من أمراء وفرسان ، وثالثاً : أن ذلك يظهر فى أول الأمر بمثابة إجراء للتأمين ضد وحشية المقاتلين قبل أن ينفذ إلى أعماق الأخلاق ويصبح الحافز إلى أفعال الفروسية .

وعلى نقيض ذلك ، يبدو الشرف أول وليد أنجبه المجتمع العربى . فهو الخير العام ، ينعم به الجميع ويدينون بمبادئه ، لا تمتاز به طبقة أو هيئة دون سواها . وإذا صعدنا فى تاريخ العرب إلى أقصى ما نستطيع أن ندرك منه ، وجدنا الشرف يلهم فصاحتهم ويغذوها ، ويهدى سلوكهم

(١) هردر ، جـ ٣ ، ص ٤٣٦ ، ترجمة « كينيه » .

ويقومه ، وكأنه النبع الفياض تصدر عنه جميع بطولاتهم . لقد أدت طبيعة أحوال أولئك الناس الذين يعتبرون أكثر أهل الأرض تمتعاً بالحرية ، إلى أن يتفاهموا على حصر وتحديد الأخطار التى تعرضهم لها حياتهم المليئة بالمغامرات والاحتياجات وأسباب الفخار والشجار ، وهم الذين لم يعترفوا بسلطان عليهم لأمير أو قانون أو حكومة . ولقد خلق لديهم تشابه أوضاع العيش تشابهاً فى العواطف ، فإذا هم يجمعون من تلقاء أنفسهم على احترام المرأة والضيف والجار والمظلوم ، لأنه كان من مصلحة كل منهم ألا يلحق به ولا بأهله العزّل أذى . ومن هنا كان الإجماع على نبذ كل فعل يشوبه الغدر أو الجبن أو الدناءة . وهكذا ، منذ عصور لا تعيها الذاكرة ، قام المجتمع العربى – نتيجة لخصائص البيئة وأهلها – على التزامات بسيطة ، فلم يكن له قانون سوى العهد ، ولم يكن له وسط تباين العقائد وشتات القبائل سوى راية واحدة ودين واحد ، ألا وهو الشرف .

وتبع هذا الدين شعب بأسره من المؤمنين والشهداء . ولما كان فخر الرجال بينهم بحيازة صفات الكمال شعوراً حياً دائماً ، فقد أدى ذلك إلى إذكاء طموحهم وزيادة قدرتهم على التحسن . إنهم لم يقنعوا باحترام جميع مظاهر ضعف الضعفاء ، بل نصبوا أنفسهم حماة لها ، أباة لا يبتغون جزاء ولا شكوراً . ولم يقنعوا فى سبيل ذلك ببذل الضيافة والقرى ، بل وتجردوا مما لهم ، وخربوا ديارهم ، وحرموا أنفسهم من الضرورى اللازم حرصاً على ألا يرفضوا قط سؤلا ، وأن يهبوا ويغدقوا . وما إن بلغوا هذه الدرجة

حتى تجاوزوها ، فلقد راحوا يتلهفون على الإغاثة وإزجاء القرى . ويستعجلون لقاء المستجير والضيف ؛ وهكذا استحال البدو الرحل كما شاءت لهم الطبيعة فرساناً هائمين ، وتصدوا لإنقاذ المنكوب ، وسعوا لإعانة البائس . وسيطر عليهم جنون الشرف سيطرة واقعية .

ولما كان الكمال يجذبهم كما يجذب المغناطيس الحديد ؛ وكما يجذب القطب المغناطيس ، يريدون بلوغه رغم كل شيء ، فلقد أفلحوا على أقل تقدير فى أن يلقوا علينا دروساً نبيلة ، وفى أن يضربوا لنا أمثلة عالية فى الزهد والولاء ، والكرم والمروءة . وتسابقوا جميعاً فى مضمار فضائل الرجولة وكل منهم يريد أن يدرك المكانة الأولى ، فأدركوا أسمى مكانة يصبوا إليها إنسان . ولن نحاول أن نعدد على مسبحة أسماء تلك الفضائل ، خشية أن ينفذ صبر القارئ . لن نتحدث عن شجاعتهم ولا عن بسالتهم ؛ فلقد كانت الشجاعة والبسالة بينهم عملة شائعة رائجة . ولن نتحدث عن دين الثأر الذى اعتنقوه ، ولعله كان أعمق عواطف النفس العربية . وسوف نضطر أيضاً إلى الإيجاز فى ذكر العرض — وهو أرق وأثمن تلك الأزهار — هذا الجانب المرهف الذى يأبى الإهانة[1] ، ويدفع الرجال إلى التضحية

---

(١) « العرض — وهو ترفه الشرف — لون من الارتياب الحذر الذى لا يدفع المسبة والعار فحسب ، بل يأبى أدنى شك يتردد حول الشرف والشجاعة ، والذى لا يثور ضد الإهانة فحسب ، بل يثور ضد ظل الإهانة » .

جان — جاك أمبير : منوعات من التاريخ الأدبى والأدب . ج ١ ، ص ١٨٦ .

بحياتهم ، وأموالهم ، بل وبقبيلتهم ، فى سبيل محو وصمة لحقت بالشرف . وياله من شعور رائع أحال الشاعر الشنفرى وحشاً ضارياً لا يرضى بالموت قراراً إلا بعد أن قتل مائة من بنى سلمان ، إذ صفعته صبية منهم . إنه ذلك الشعور الرائع الذى « أثار عام ١٥٦٨ جميع أهل البزارة بغرناطة ، وأهلك خمسين ألفاً من الأندلسيين فى سبيل الثأر من « دون جوان دى مندوزا » الذى ضرب بالعصا « دون جوان دى مالك » سليل بنى أمية »[١] .

ولسوف نقنع هنا – فلا بد من الحدود – برصد الفضائل العربية فى إطار شرائع الفروسية الأوروبية . وسيتيح لنا ذلك فائدة مزدوجة ، إذ نركز موضوعنا من ناحية ، ونبين من ناحية أخرى أن العرب كانوا يتمتعون بالعواطف التى اصطلح الناس على نعتها بالعواطف المسيحية .

ويمكن أن نوجز قانون الفروسية – وهو الذى لم يصغ قط فى نصوص واضحة[٢] – بأن نعرضه فى ثمانى وصايا ، تختص أربع منها بفروض الدين ونظام الإقطاع ، وأربع بدعائم العسكرية والفروسية . وسوف نعرض الوصايا الأربع الأولى عرضاً سريعاً ، ونورد ما يقابلها من النصوص القرآنية ، ثم نقف وقفة أطول عند فضائل الفرسان التى استنها قانون الفروسية :

الوصية الأولى : مؤداها ، أنه « يجب الإيمان بجميع تعاليم الكنيسة

---

(١) س . دى سيسموندى ، ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) جوتييه : الفروسية ، ص ٣١ .

واتباع جميع أوامرها» وأن على الفارس – فضلاً عن أداء بعض الواجبات الدينية كشهود القداس ، والاعتراف ، والتناول قبل القتال – واجب « الموت فى سبيل الإيمان وفى ظله » . وفى ذلك يقول الشاعر « أوستاش ديشان » (Eustache Deschamps) :

الفرسان فى هذه الدنيا
لا يستطيعون أن يعيشوا بلا همّ :
فعليهم أن يدافعوا عن الشعب
وأن يريقوا دمهم من أجل الإيمان[1].

وكان أداء هذا الواجب – واجب إراقة الدم من أجل الإيمان – ضماناً للمقاتل أن يثاب فى الأعالى « بالمجد المطلق » وبشذى أزهار الفردوس المقدسة .

ويقول القرآن : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

ويقول النبي : « والذى نفسى بيده ، لا يكلم أحد فى سبيل الله – والله أعلم بمن يكلم فى سبيله – إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك » .

وهكذا نرى أن الإسلام والمسيحية متفقان فى اعتبار أولئك الذين

---

(١) عن لاكورن دى سانت – باليه ، ص ١٢٨ .

يموتون دفاعاً عن معتقداتهم وعن مثلهم الأعلى أصفياء وشهداء ، جديرين بنعيم السموات .

وليس أعدل من ذلك .

وتقول الوصية الثانية « ينبغي أن تحمى الكنيسة » ، وبعبارة أخرى : افعل كل ما فى وسعك للمحافظة على المسيحية وتقويتها .

ويقول القرآن : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » .

ونقرأ هذه الآية أيضاً : « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . »

أما الوصية الثالثة فهى : « اعلن على الكفار حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة » .

ومن المعروف أن هذه الوصية قد طبقت فى العصور الوسطى تطبيقاً حرفياً دام عدة قرون ، واحتدم خلالها تعصب لم يحتدم مثله بعد ذلك أبداً . ويلاحظ جوتييه « أن جميع قصص تلك الحقبة ما هى إلا رواية ذلك الصراع العظيم الهائل »[1]. ويلتمس خير تصوير للفرسان المسيحيين وأصدقه فى هذين البيتين :

---

(١) جوتييه ص ٧١ .

« إنهم يقاتلون الترك تطوعاً ورضا

وكثيراً ما يتعمدون فى دمائهم » .

ولا يشفى الموت نفسه غلاة أولئك المحاربين المتوحشين ، إذ يبدو أن لذات الخلد تعجز عن الحد من انطلاقهم إلى مقاتلة الكفار . فلقد كانوا يقولون : « ولئن كنا فى الفردوس راقدين ، لهبطنا منه لمقاتلتهم » ولعلهم يهبطون كذلك راضين لتأديب المارقين من أهل « ألبي » .

وينبغى أن نعترف بأن المسلمين – فى زمن رخائهم وسلطانهم على الأقل – قد أظهروا فى الخارج وفى الداخل روح تسامح أعظم . فهم فى الخارج لم يعمدوا مطلقاً إلى ذلك الاعتداء الصارخ ، وإلى إرغام الناس على تغيير عقائدهم قهراً ، كما حدث مراراً فى تاريخ الحروب الصليبية ، وحروب أسبانيا ، وسقوط غرناطة ، فالشريعة القرآنية تقضى بأن يوجه إلى الشعوب التى يراد مهاجمتها إنذار سابق لكل عمل عدائى . قال تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ... » وقال : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وهذا هو الخليفة أبو بكر يخطب فى جنود أسامة الماضين إلى غزو الشام ، فى نفس السنة التى توفى فيها محمد (٦٣٢) ، أى فى أشد أطوار النزعة الدينية عند العرب فيقول :

« قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ،

ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه . وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون[1] » . وما هؤلاء الرجال الذين يعيشون معتزلين سوى الرهبان المسيحيين .

وإذا تم فتح بلد من البلاد ، كانوا يدعون لأهله دينهم وعاداتهم بل ونظامهم الإدارى . وما كانوا يفرضون عليهم إلا دفع جزية هى فى أغلب الأحيان أقل مما كانت تفرضه عليهم الحكومة السابقة من الضرائب . وإن هناك حديثاً ثابتاً يحث على احترام حقوق الذميين (المسيحيين واليهود) إذ لهم حسب السنة ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما على المسلمين من واجبات[2] ، ومن آذى ذمياً كان غير جدير بالإسلام[3] . لقد أصاب « فوربيل » إذن عندما قال : « ولا يقدم التاريخ قط مثلاً من الاضطهاد أو الحيف الموجه ضد المغلوبين ، ولقد أولى جميع الرؤساء المشهورين

---

(١) الصديق أبو بكر . لمحمد حسين هيكل ص ١٠٥ (تحقيق) .

(٢) و(٣) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٧٤ .

بالإنصاف حمايتهم جميع رعاياهم بلا تفريق [1] » .

ويمكن أن تصاغ الوصية الرابعة على النحو التالى : « ينبغى أن تؤدى واجباتك الإقطاعية » ، أى أنه كان يجب على الفارس أن يفى على وجه الدقة بجميع الالتزامات الإقطاعية التى تقع على عاتقه ولا سيما الإخلاص لمولاه .

ويوصى الإسلام من جانبه « بطاعة أولى الأمر » ، ولكن طاعة غير عمياء . فهناك حديث أورده البخارى ومسلم ، يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »[2] .

ومن الطريف أن نلاحظ هنا أن صاحب السيادة أو الخليفة ليست له سلطة دينية بالمعنى الصحيح . والأصل أن يعينه الشعب أو الجماعة التى تمثل الشعب ، فهو يستمد حقوقه لا من الله بل من الشعب ، الذى يستطيع أن يطيح به إذا تنكر لمبادئ العدل والإنسانية التى نص عليها القرآن . إن سلطاته مدنية لا دينية . وهو غير معصوم من الخطأ . وإذا

(١) فورييل : تاريخ غالة الجنوبية جـ ٣ ص ٥٩ .

(٢) جاء فى بيان أصدره شريف مكة : «لا التزام لمخلوق بطاعة ضد شريعة الخالق. » (جريدة الطان ١٢ نوفمبر ١٩١٦) . ولا توجد فى الواقع سلطة دينية مطلقة فى الإسلام . غير أن « العلماء » يعتبرون « أعلم » من سواهم ، ويعتبر تأويلهم للشرع أقرب إلى الحقيقة . وعلى هذا النحو ينبغى فهم قول النبى : « الدين النصيحة » الذى ردده علماء القاهرة فى بيانهم للمصريين ، وفيه يحثونهم على إيثار الهدوء أثناء الحرب (الصحف المصرية ٩ نوفمبر ١٩١٤)

كان من حقه أن يفسر النصوص الشريفة ، فإن لأهون رعاياه أن يشاطره هذا الحق . أو لم يشهد القوم السلطان صلاح الدين يمثل بين يدى القاصى وقد شكاه أحد رعاياه ؟ . . . لقد كسب قضيته ثم تنازل لخصمه عن موضع نزاعهما (بهاء الدين) .

وإن الوصايا الأربع الأخيرة من قانون الفروسية تشمل فضائل الفروسية الأربع الأساسية ، ألا وهى الشجاعة (لا تتقهقر أمام العدو) ، والوفاء بالعهد (لا تكذب وف بعهدك) ، والكرم (كن جواداً وأغدق على الجميع) ، وحماية الضعيف (احترام جميع الضعيفات وكن المحامى عنهن) . ولسوف ندرس هذه الوصايا على حدة .